العنوان:	شهادة
المصدر:	أعمال الندوة التكريمية التذكرية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي
الناشر:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة
المؤلف الرئيسي:	غلاب، عبدالكريم
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
مكان انعقاد المؤتمر:	طنجة
الهيئة المسؤولة:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة
الشهر:	مايو
الصفحات:	77 - 80
رقم MD:	576846
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	محمد بن تاويت الطنجي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/576846

شهادة

عبد الكريم غلاب*

المرحوم الأستاذ الباحث المحقق إسم عَرَفَتْهُ مراكز البحث والاستقصاء والتنقيب عن النادر والمهم من كنوز العلم والمعرفة في الثقافة الإسلامية العربية والمغربية على الأخص.

لم يدخل أبواب المعرفة من الخلف ولكنه تتلمذ في القرويين على يد أساتذة محققين كانت مجالسهم لا يرتادها إلا النبغاء من الطلبة. وأذكر أنه كان مواظباً على درس الشيخ الطايع بن الحاج، وهو أستاذ في السلك العالي بالقرويين كان يدرس أصول الفقه، وكانت دروسه المعروفة بالدقة والبحث والاجتهاد في التبليغ مما يعلّم معه الطلبة - إلى جانب المادة التي يدرسها الأستاذ - الدقةَ في النفاذ إلى عمق المشكلة التي يحللها.

ومن الأكيد أن هذا الأستاذ الكبير المحقق، كما كان يعبّر عنه في القرويين، ترك بصماته في فكر الأستاذ المرحوم ابن تاويت. كنت ألحظه في دروس الشيخ ابن الحاج مسنداً ظهره إلى سارية بجلبابه الصوفي المخطط تزين وجهَه الصبوح الممتلئ لحية سوداء تنبئ عن شباب غض وعافية، تكسو الوجه الصبوح ابتسامة عذبة محببة، يبدو عليه حياء

* عضو أكاديمية المملكة المغربية

غير مصطنع وعزلة تجعله يختفي عن المجالس الخاصة للطلبة الذين تجمعهم مجالس الحديث والمناقشة العلمية بين الدروس. تعرفت على كثير من الطلبة، وخاصة الذين يفدون من الشمال، وكان في مقدمتهم المرحوم بن تاويت (التطواني) - وصفة الطنجي والتطواني لم تلحق بالمسميين إلا بعد أن جمعتهما حلقة واحدة في فصل واحد بكلية الآداب بجامعة القاهرة («فؤاد الأول» آنذاك) - ولكنني لم أتعرف شخصياً إلى الأستاذ الطنجي لعزوفه عن مجالس الطلبة خارج الدروس. غير أن صورته، وهو يستند إلى سارية في مجلس الشيخ ابن الحاج انطبعت في ذاكرتي لأن صاحبها كان يبدو عليه الذكاء والاهتمام والمثابرة.

وكانت المفاجأة في القاهرة حينما تكوَّن بيت المغرب في سنة 1938، ومن طلبته بعض الذين عرفتهم في القرويين. كان من الأسماء التي تعرفت عليها في بيت المغرب محمد ابن تاويت، كما تعرفت على الإخوة الآخرين الذين لم يضمهم بيت المغرب الشهيد محمد عبود - الذي توثقت صلاتي به في القرويين قبل أن تزداد توثقاً في مصر - وأحمد مدينة ومحمد المسفيوي ومصطفى ابن عبد الوهاب ... كلهم نهلوا من القرويين قبل أن يكملوا دراساتهم في الجامعة في مصر.

في القاهرة كان الأستاذ الخولي من أساتذة المرحوم محمد بن تاويت الطنجي، وهو أستاذ علوم كان يتميز بالدقة في البحث والتنقيب عن الشارد من المعاني والأفكار. الخولي كان يجمع بين فكر الأزهري المدقق والجامعي المتحرر. وكان قوي الشخصية لا يتساهل مع مقولة تُقال أو نظرية تُصاغ، ولا يقبل مرجعاً غير موثوق، ولا يقبل من الطالب أن ينقل من كتاب لم يكن له رأي أو تحليل أو تنظير أو اعتراض فيما ينقل. ولذلك كانت دروسه عميقة - ليس في نقل المعرفة التي كان يستهين بما يوجد منها في الكتب ويعتبره حقلاً مشاعاً للجميع - ولكنها عميقة في تلقين طريقة التفكير والبحث واستقلال شخصية الباحث فيما يدرسه وما يفكر فيه.

وقد ترك بصماته قوية في طلبته. ومن المؤكد أن شخصية المرحوم محمد بن تاويت تأثرت من جديد بطريقة الخولي في البحث والتفكير، وبأحكام القيمة التي كان يصدرها على ما يدرس من علوم القرآن والبلاغة والأدب.

وكان الخولي مقلاً فيما يكتب ويحقق، لأنه لم يكن يصدر عن فكر متساهل، كان معتزاً بالرأي، ولا يصدر عن رأي لا يبحثه، كان قاسياً - علمياً - على طلبته بمقدارما كان قاسياً على نفسه وتلك صفات من المؤكد أنها تسربت إلى المرحوم ابن تاويت كما تسربت إلى مجموع طلبة الخولي.

ابن الحاج في القرويين بفاس، والخولي في كلية الآداب بالقاهرة طبعا - في رأيي - شخصية ابن تاويت العلمية. معظم الذين تخرجوا من القرويين وكليات القاهرة جمعوا بين الأصالة والمعاصرة. ورغم أنهم - في مجموعهم - نهجوا مناهج مختلفة في إنتاجهم العلمي والثقافي - أعني الذين كان لهم إنتاج - فإنهم تأثروا بالمدرستين. وكان ابن تاويت في مقدمة من تأثر بجانب خاص من المدرستين هو جانب التحقيق والتدقيق، والقسوة على الذات العالمة.

كان اتجاهه إلى ميدان لا يستقيم فيه الاتجاه إلا للذين يقسون على أنفسهم - علمياً - بالبحث والاستقصاء والدرس. ولم يكن يكفيه أن يعود إلى المصادر المتاحة لعموم الباحثين. ولذلك أصبح راهباً في المكتبات النادرة، يبحث في المخطوطات التي يستعصي البحث فيها على الكثيرين ليحقق نصاً أو يخرج بنتيجة في الثقافة الإسلامية العربية.

وشغُف بابن خلدون فاستخرج كتاب «التعريف» في سيرته الذاتية وهو من أهم كتب ابن خلدون، ليس من حيث السيرة الذاتية العادية، ولكن من حيث منابع فلسفته الاجتماعية، وأعتقد أن مقدمة ابن خلدون بكل ما حوته من تنظير فلسفي اجتماعي سياسي مدينة لحياته. ذلك أنه لم يعش حياة العالم المنزوي أو المؤرخ الذي يستمد معارفه من الكتب فحسب، ولكنه عاش حياة المفكر والسياسي والملاحظ والمتتبع لقيام الدول في الأندلس والمغرب ومصر، ولتقلبات السلطة بين الملوك والسلاطين. وبفكره الثاقب استطاع أن يؤسس علم الاجتماع السياسي وأن يكون رائداً فيما أسس وكتب. أصول هذا التفكير الفلسفي الاجتماعي أجدها في كتاب «التعريف» الذي كان للمرحوم ابن تاويت الفضل في نشره نشراً علمياً دقق وحقق كل كلمة فيه. وكان قاسياً على نفسه وهو يعد هذا المجلد فساعده في بضع سنوات بعد أن رجع إلى كل

المخطوطات وكل المكتبات التي يمكن أن يرجع إليها وكان غيره من الباحثين يمكن أن يعده في بضعة أشهر.

نعرف أن الأستاذ ابن تاويت رحمه الله كان شغوفاً بابن خلدون وكان برنامجه مع هذه الصحبة الطويلة أن ينشر «المقدمة» و«كتاب العبر». ولكنه لعدم ثقته إلا في العمل المنفرد بالبحث والاستقصاء لم تسعفه الحياة بتحقيق النصين، وقد أسعفت ابن خلدون نفسه بكتابتهما.

وإنا لنرجو أن يكون فيما خلّف، مما بقي في حوزة عائلته في تركيا حيث اختار الإقامة لسنين طويلة، ما يمكن نشره محققاً من آثار ابن خلدون والآثار الأخرى التي يكاد يطويها النسيان.

وتلك مهمة الذين سهروا على هذا المهرجان التذكاري لشخصية علمية فريدة في تاريخ المغرب الحديث.

نقول شخصية فريدة ليس في جانبها العلمي فحسب، ولكن في أخلاقه ومعاملاته وانقطاعه للعلم وريادته للصعب من دروبه ودأبه على البحث والاستقصاء ومعرفته النادرة بالتراث العربي والإسلامي والمغربي.

رحم الله ابن تاويت عاش عالماً خجولاً في علمه لم يقدم نفسه للمجتمع. وعلى الذين يقدرون هذا الرجل المثال أن يقوموا بهذه المهمة.